International Journal of Arabic Language and Literature Studies
المجلة الدولية لدراسات اللغة العربية وادابها
ISSN: 2707-7659
DOI: 10.32996/ijalls
Journal Homepage: www.al-kindipublisher.com/index.php/ijalls

قضية اللفظ والمعنى

د. رمزية المازمي - باحثة - قسم اللغة العربية وآدابها – جامعة الوصل - دولة الإمارات العربية المتحدة
د. أحمد المنصوري- أستاذ - قسم اللغة العربية وآدابها – جامعة الوصل - دولة الإمارات العربية المتحدة

تاريخ استلام البحث: 2024/11/25 **تاريخ نشر البحث: 2024/12/08** **المجلد: 6** **العدد: 1**

الملخص:
يجتهد هذا البحث في تسليط الضوء على قضية اللفظ والمعنى في النقد الأدبي العربي القديم، ويسعى إلى دراسة اختلاف آراء النقاد حول هذه القضية، حيث تناقش البحث بين ثلاثة توجهات: فريق يُعطي الأولوية للفظ، وفريق يُفضّل المعنى، وفريق يسعى للتوفيق بين الاثنين. كما يُستعرض في هذا البحث الجوانب الفكرية والدينية التي أثرت على نظرة النقاد لهذه القضية، بما في ذلك ارتباطها بالإعجاز القرآني وتأثيرات المذاهب الفكرية في تحديد أولوية كل من اللفظ والمعنى.

الكلمات المفتاحية :اللفظ، المعنى، النقد الأدبي، البلاغة، الجاحظ، ابن قتيبة، عبد القاهر الجرجاني.

The Issue of Word and Meaning in Arabic Literary Criticism

Dr. Ramziya Al-Maazmi, Researcher, Department of Arabic Language and Literature, Alwasl University, United Arab Emirates
Dr. Ahmed Al-Mansoori - Professor - Department of Arabic Language and Literature - Al Wasl University - United Arab Emirates

RECIEVED: 25 November 2024 **PUBLISHED:** 08 December 2024 **DOI:** 10.32996/ijalls.2024.6.1.11

Abstract
This research endeavors to shed light on the issue of word and meaning in ancient Arabic literary criticism. It aims to explore the differing perspectives of critics on this topic, covering three main approaches: one prioritizing the word, another favoring the meaning, and a third seeking a balance between both. The study also examines the intellectual and religious aspects influencing critics' views, including the connection to Quranic inimitability and the impact of philosophical doctrines in determining the importance of either word or meaning.

Keywords: word, meaning, literary criticism, rhetoric, Al-Jahiz, Ibn Qutaybah, Abdul-Qahir Al-Jurjani.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، رضي لنا الإسلام ديناً، وجعله ديناً شاملاً لكلّ مظاهر الحياة، وصلّى الله وسلّم وبارك على سيد الأنبياء محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وعلى من تبع هُداه، وتمسَّك بشريعته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وأما بعد...

يعد النقد من أهم ما تقوم عليه الحياة، وترتقي به الحضارات، وترتكز عليه الأمم في تطورها، وتبني به الشعوب قواعدها الثابتة، وتقيمها على أسس سليمة، وتفاخر بها العالم، ذلك أن بالنقد نعرف الصحيح من الخطأ، والجيد من الرديء، والأدب موضوع النقد وميدانه الذي يعمل فيه، وأدب أي أمة هو المأثورمن بليغ شعرها ونثرها، والأدب عمليّة خلق وإبداع، ومنه ما يسمو صعدا إلى الكمال ومنه ما يقصر دون ذلك، ولا يكون النقد الأدبي مرافقا للعمل الأدبي وناشئا معه، ولكنه يأتي بعد ظهور العمل الأدبي، وإذا كان الأدب بطبيعته ينزع إلى الحرية المطلقة والتجديد،

واكتشاف آفاق جديدة يحلق فيها ويعبر عنها، فإن النقد على العكس من ذلك إنه محافظ مقيد، يقف عند حدود دراسة الأعمال الأدبية بقصد الكشف عما فيها من مواطن القوة والضعف، والحسن والقبح، وإصدار الأحكام عليها وتذوق مناحيها الجمالية.

تمهيد

النقد الأدبي نظرة تاريخية:

لقد ظهر النقد الأدبي عند العرب منذ العصر الجاهلي في شكل أحكام انطباعية وذوقية وموازنات ذات أحكام تأثرية مبنية على الاستنتاجات الذاتية كما نجد ذلك عند النابغة الذبياني في تقويمه لشعر الخنساء وحسان بن ثابت. وقد قامت الأسواق العربية وخاصة سوق عكاظ ثم سوق المربد بدور هام في تنشيط الحركة الإبداعية والنقدية. كما كان الشعراء المبدعون نقادا يمارسون التقويم الذاتي من خلال مراجعة نصوصهم الشعرية وتنقيحها واستشارة المثقفين وأهل الدراية بالشعر كما نجد ذلك عند زهير بن أبي سلمي الذي كتب مجموعة من القصائد الشعرية التي سماها "الحوليات " والتي تدل على عملية النقد والمدارسة والمراجعة الطويلة والعميقة والمتأنية. وتدل كثير من المصطلحات النقدية التي وردت في شعر شعراء الجاهلية على نشاط الحركة النقدية وازدهارها.[1]

وإبان فترة الإسلام سيرتبط النقد بالمقياس الأخلاقي والديني كما نلتمس ذلك في أقوال وآراء الرسول (ص) والخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم، وسيتطور النقد في القرن الأول الهجري وفترة الدولة العباسية مع ابن قتيبة والجمحي والأصمعي والمفضل الضبي من خلال مختاراتهما الشعرية وقدامة بن جعفر وابن طباطبا صاحب عيار الشعر والحاتمي في حليته وابن وكيع التنيسي وابن جني والمرزوقي شارح عمود الشعر العربي والصولي صاحب الوساطة بين المتنبي وخصومه...هذا، ويعد كتاب" نقد الشعر" أول كتاب ينظر للشعرية العربية على غرار كتاب فن الشعر لأرسطو لوجود التقعيد الفلسفي والتنظير المنطقي لمفهوم الشعر وتفريعاته التجريدية. بينما يعد أبو بكر الباقلاني أول من حلل قصيدة شعرية متكاملة في كتابه"إعجاز القرآن"، بعدما كان التركيز النقدي على البيت المفرد أو مجموعة من الأبيات الشعرية المتقطعة.

وقضايا النقد العربي القديم قضايا متعدِّدة فريدة، نالت الكثير من جهد الباحثين، وما تزال موضوعاتُه خصبةً للبحث والدراسة، ولعل قضيةَ اللفظ والمعنى -موضوع هذا البحث-تبقى على رأسِ المشاكل أو القضايا التي شغلت النقَّاد العرب؛ وذلك لِما نشِب حولها مِن اختلافٍ لوجهات النظر بين مَن يتعصب للفظ ويحتجُّ له، وبين مَن لا يرى سوى المعنى شيئًا يدعو للاهتمام، وبين ثالث على مذهب الوسط، محاولًا التوفيق بين الرأي الأول والرأي الثاني؛ لا مِن هؤلاء، ولا هؤلاء.

وسنقوم-إن شاء الله-بعرض قضية اللفظ والمعنى، أو الشكل والمضمون، بالتفصيل، وسيكون البحث مقسما إلى مبحثين:

- المبحث الأول، وفيه: مفهوم القضية ومعناها لدى النقاد، نظرة تاريخية على القضية وتطور تناولها.
- المبحث الثاني، وفيه: آراء القدماء حول قضية اللفظ والمعنى.

المبحث الأول: مفهوم القضية ومعناها، ونظرة تاريخية على القضية وتطور تناولها:

علاقة اللفظ بالمعنى تمتد إلى أعماق بعيدة تنتظم النشاطات البشرية في المجال اللغوي، من كلام وإبداع ونظم وغير ذلك...فكان لابد أن يوجد مصطلح يمثل جهة اللغة ويعبر عنها وهو (اللفظ)، ومصطلح يعبر عن جهة المضامين وهو (المعنى).

قضية اللفظ والمعنى: لغة واصطلاحا:

من أدبيات البحث العلمي أن نقوم بتعريف مصطلحات البحث، لغة واصطلاحا:

تعريف اللفظ والمعنى لغة، واصطلاحا:

اللَّفْظُ: أَن تَرْمِي بِشَيْءٍ كَانَ فِي فِيكَ، والفِعلُ لَفَظ الشيءَ، يُقَالُ: لفَظْتُ الشَّيْءَ مِنْ فَمِي أَلفِظُه لَفْظًا: رَمَيْتُهُ..."[2]

وذكر صاحب كتاب التعريفات أن "اللفظ: ما يتلفظ به الإنسان -أو مَن في حكمه -مهملًا كان أو مستعملًا"، وقال في تعريف " المعنى: ما يقصد بشيء".[3]

أما صاحب المقاييس، فقد ذكر: "(لفظ): اللام والفاء والظاء كلمة صحيحة، تدل على طرح الشيء، وغالب ذلك أن يكون من الفم، تقول: لفظ بالكلام يلفظُ لفظًا، ولفظتُ الشيء من فمي...، وهو شيء ملفوظ ولفيظ".[4]

أما المعنى لغة: فهو ما يقصد بشيء، ولا يطلقون المعنى على شيء إلا إذا كان مقصودا، وأما إذا فهم الشيء على سبيل التبعية فيسمى معنى بالعرض لا بالذات. ومعنى كل كلام، ومعناته ومعنيته، مقصده.[5]

فالمعاني فهي الصورة الذهنية إذ وقع بإزائها اللفظ من حيث إنها تقصد منه، وذلك ما يكون بالوضع، فإن عبر عنها بلفظ مفرد سمي معنى مفردا، وإن عبر عنها بلفظ مركب سمي معنى مركبا.[6]

([1]) مصطلحات النقد العربي لدى الشعراء الجاهليين والإسلاميين، الشاهد البوشيخي، عالم الكتب الحديث، 2009، المقدمة.

([2]) لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت الطبعة: الثالثة، 1414 هـ، مادة (لفظ).

(3) التعريفات، الشريف الجرجاني الجرجاني (الشريف علي بن محمد، ت.816هـ) تحقيق جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى. 1403هـ/1983م. ص: 220.

(4) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ج5، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر 1979، ص259.

(5) الكليات، الكفوي أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني، ت.1094هـ، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الأولى. 1412هـ/1992م. ص: 842.

(6) التعريفات، الشريف الجرجاني الجرجاني (الشريف علي بن محمد، ت.816هـ) تحقيق جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى. 1403هـ/1983م. ص: 220.

وتعد قضية اللفظ والمعنى القضية النقدية الأكثر شيوعًا في الساحة النقدية والعربية، التي حازت من الاهتمام الشيءَ الكثير؛ سواءٌ من طَرَف النقادِ أو البلاغيين، أو حتى من طرفٍ علماء الكلام مِن الفِرق الكلامية، ولعلَّ هذا الأخير كان صاحب قصب السبق في إبداءِ آرائهم وإعطاء مواقفِهم خصوصًا مع فتنة خلق القرآن، وما أُثير حولها من أسئلة من قبيل: هل القرآن مخلوق لم يكن ثم كان؛ أي محدث؟ أم إنه كلام الله قديم أزلي وليس بمخلوق؟

اللفظ والمعنى في الفكر القديم: (أفلاطون -أرسطو):

إن ثنائية اللفظ والمعنى -أو اللغة والفكر-ثنائيةٌ إنسانية بامتياز، لا ترتبط بثقافة دون أخرى، وليس أدلَّ على ذلك مِن أن اللغة أو الفكر الذي يعبَّرُ عنه من طرف هذه اللغة، من بين ما تتقاسمه البشرية جمعاء، ولا يقتصران على فكر وحدَه، ومن باب المنطق الزمني يبقى التراث الفكري الغربي أوَّل من أثار هذه القضية -حسب ما وصل إلينا من الكتب التي سَلِمت من الضياع -وإن كنَّا في الحقيقة لا ننفي أن تكون جذور القضية أبعد من ذلك، ما دام تاريخ الإنسانية على وجه البسيطة لا يبدأ مع الإنسان اليوناني.

والذي لا شك فيه أن الحديث عن قضية اللفظ والمعنى في التراث الغربي لا يستقيم إلا بالرجوع إلى أحد أعلام الفلسفة اليونانية (أفلاطون)، الذي ذكر هذا الجانب ورجَّح أفلاطون كِفَّة المعنى؛ حيث قال بأسبقية الوعي على المادة، "وينطلق في هذا من إيمانه واستناده إلى الفلسفة المثالية، التي ترى أن الوعي أسبق في الوجود من المادة"، فالمعاني والأفكار - حسب أفلاطون - هي الأسبق، وهي الحقائق المطلَقة التي لا يرتقي الشك إليها، وهي الموجودة في عالَم المُثُل، في حين أن الألفاظ لا تمثل عنده سوى محاكاةٍ لِما هو موجود في عالم المُثُل من أفكار ومعانٍ، ولهذا السبب، فالألفاظ عند أفلاطون تبقى ناقصةً وبعيدة عن الحقيقة، وإلى ذلك أشار بقوله: "إن عمل الأديب يُشبِه عمل المرآة؛ أي إن محاكاتَه للأشياءِ والظواهر آليةٌ فوتوغرافيةٌ؛ أي حرفية، ولذلك فهو لا يقدم سوى صورٍ مزيفة لا حاجة لنا بها؛ لأن ما نحتاجه وينفعنا هو الأصل لا الصورة"

إن أفلاطون -من خلال هذا النص -يجعل الأصل والصورة في مقابل المعنى واللفظ، فاللفظ لا يُمثِّل سوى صورةٍ للمعنى الأصل، وعليه فإن الألفاظ لا يمكن أن تصل إلى مرتبة المعاني الأصول، أما التلميذ "أرسطو"، فقد ذهب إلى التوفيق بين اللفظ والمعنى؛ حيث نقض المعادلة التي تجعل الأصل والصورة في مقابل المعنى واللف؛ حيث ذهب إلى أن اللفظ لا يمثل صورة الأصل (المعنى)، بل أصل كذلك؛ لأن الطبيعة بطبيعتها ناقصة، والشعر أو الفن هو ما يتمم ما بها من نقص.[7]

المبحث الثاني: تناول القدماء لقضية اللفظ والمعنى.

قضية اللفظ والمعنى احتلت هذه القضية حيّزًا كبيرًا في كتابات النقاد العرب القديم؛ لِما للفظ والمعنى من أهمية في تشكيل النص الأدبي، وكان من أبرز النقاد الذين تناولوها بالدرس: الجاحظ وابن قتيبة وابن رشيق القيرواني وعبد القاهر الجرجاني وابن شهيد وابن الأثير وغيرهم، وهذا عرض لبعض آرائهم فيها:

الجاحظ:

يتفق معظم الباحثين أن البداية الأولى لقضية اللفظ والمعنى كانت مع الجاحظ (ت255)، "الذي -بالإضافة إلى رأيه في أقسام البيان عامة، وملاحظاته المتعلقة بالظاهرة اللُّغوية... -تمتد تصوراتُه الأسلوبية ومقاييسُه البلاغية في رسوخ في نظريته في الكلام...، التي تقدر أن الكلام هو المظهر العملي لوجود اللغة المجرد؛ أي إن الكلام ما هو إلا تجلٍّ ومظهر عملي تطبيقي للغة المجردة القائمة في نفس الإنسان. (8)

ولقد فصل الجاحظ بين اللفظ والمعنى، وجعل المعاني مطروحة في الطريق للجميع، وهي المادّة الأولية للشعر، ولكنّ الفضل يعود للفظ، الذي يدعو معه إلى حُسن صياغته، وجودة سبكه، وسهولة مخرجه. ابن قتيبة: وهو يفصل بين اللفظ والمعنى، ويجعلهما كيانَيْن مستقلين، ويُقسّم الكلام إلى أربعة أقسام: قسم حسن لفظه وجاد معناه، وقسم حسن لفظه دون فائدة من معناه، وقسم جادَ معناه وقصرت ألفاظه عنه، وقسم تأخّر معناه ولفظه. ابن شهيد الأندلسي: وهو يرى بضرورة التحام اللفظ بالمعنى، فالشعر ليس باللفظ وحده، ولكن باللفظ والمعنى معًا. ابن رشيق القيرواني: يربط بين اللفظ والمعنى، ويرى بأن المعنى روح منصبّة في جسم اللفظ، فإذا قوي الجسد قويت الروح، وإذا ضعف الجسد ضعفت الروح.[9]

فالجاحظ جعل اللفظ والمعنى في مقابل الجسد والروح؛ إذ إن "الأسماء في معنى الأبدان، والمعاني في معنى الأرواح، اللفظ للمعنى بدنٌ، والمعنى للفظ روح، ولعل الأمرَ يزداد وضوحًا مع ما ذكره هو نفسُه في البيان والتبيين: "مَنْ أرادَ معنًى كريمًا فليلتمسْ له لفظًا كريمًا، فإن حقَّ المعنى الشريف اللفظُ الشريف. وبناءً على ما سبق، فإن الجاحظ لم يتنصِر للفظ على حساب المعنى أو للمعنى على حساب اللفظ، بل ذهب إلى ما سماه بالمشاكلة والمطابقة بينهما. [10]

وقد تقاطع معه في ذلك ابن قتيبة (ت276)، "الذي أدرَك لحمة المعنى واللفظ في إطار الصياغة الواحدة، وإن كان يميز بين أربعةِ أقسامٍ من الشعر -انطلاقًا من ثنائية اللفظ والمعنى -هي:

- ضربٌ منه حسُن لفظه وجاد معناه.
- ضربٌ منه حسن لفظه وحلا، فإذا أنت فتَّشته لم تجد فائدةً في المعنى.
- ضربٌ منه جاد معناه وقَصُرتْ ألفاظُهُ عنه.
- ضربٌ منه تأخَّر معناه وتأخر لفظه.[11]

(7). في نظرية الأدب، شكري عزيز الماضي، ص18

(8). الأخضر جمعي، اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب، منشورات كتاب اتحاد الكتاب العرب، دمشق –2001، ص39

(9). رسائل الجاحظ، الجاحظ، نقلًا عن الأخضر جمعي، (اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب)، ص44

(10). الجاحظ، رسائل الجاحظ، نقلًا عن الأخضر جمعي، (اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب)، ص44

(11). ابن قتيبة الدينوري، الشعر والشعراء، ج1، دار الحديث، القاهرة 1423، ص65/67/69

وقد أعطى أمثلة لكل هذه الأقسام لا يتسع المكان لذكرها، ولمن أراد الاطلاعَ على هذه الأمثلة وغيرها، ففي العمدة ما يشفي الغليل.

والأمر لا يختلف كثيرًا مع قدامةَ بنِ جعفر (ت337)، الذي ذهب إلى أن العملَ الأدبي يجب أن يتميَّز بإتلافِ عناصرِه النصيةِ؛ حيث يقول فيما سماه بالمساواة" :وهو أن يكون اللفظُ مساويًا للمعنى، حتى لا يزيد عليه ولا ينقص عنه، وهذه هي البلاغة التي وصف بها بعض الكتاب رجلًا، فقال: كانت ألفاظُه قوالبَ لمعانيهِ؛ أي هي مساويةٌ لها لا يفضُلُ أحدُهُما على الآخر...[12]

وقد احتل اللفظُ والمعنى عند نقَّاد عمودِ الشعر مكانةً رئيسة؛ حيث نجدهما على رأس أبواب عمود الشعر السبعة عند المرزوقي (ت421)، الذي كان آخرَ حلقةٍ في تطورِ هذه القواعد، ومعه استوت على سوقِها، حيثُ ذكر:

- شرف المعنى وصحته.
- جزالة اللفظ واستقامته.
- الإصابة في الوصفِ.
- المقاربة في التشبِيه.
- التحام أجزاءِ النظم والتئامها على تخيرٍ من لذيذِ الوزنِ.
- مناسبة المستعار منه للمستعار له.
- مشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا تكون منافرة بينهم.

وقد ذكر عيارَ كلّ واحدٍ منهما -أي عيار اللفظ وعيار المعنى -فقال: "فعيارُ المعنى أن يُعرَضَ على العقل الصحيح، والفهم الثاقب، فإذا انعطف عليه جَنبتا القبولِ والاصطفاء، مُستأنِسًا بِقَرَائنه، خرج وافيًا، وإلا انتقض بمقدار شَوْبِهِ ووحْشتِهِ."

وقال في اللفظ: "وعيار اللفظ الطبعُ والرّوايةُ والاستعمالُ، فما سلِم ممَّا يُهجنهُ عند العرضِ عليها، فهو المختارُ المستقيم...[13]

أما **عبد القاهر الجرجاني**، فقد كان لتأخره زمنيًّا عن كل المذاهب الأثرُ الإيجابي في اطلاعه على مختلف الآراء النقدية التي قيلت حول هذه القضية؛ حيث "اجتمعت لديه آراؤهم، وأفاد مِن خبرتِهم، ولكنه تجاوزهم إلى رأي خاص، وكانت له في هذا المجال أصالة وتعمق، وكان صاحب مدرسةٍ في النقد، أدرك فيها ما لم يُدرِك النقادُ."...

ولعل أكبر ما اشتهر به عبد القاهر الجرجاني في النقد الأدبي هو عَلاقة اللفظ والمعنى بالإعجاز القرآني، التي اصطُلِح عليها فيما بعد (**بنظرية النظم)**، هذه النظرية التي كانت بمثابة الخلاصة التي أفرزَتْها قضية اللفظ والمعنى، خصوصًا في المشرق العربي، حيث "صاغ فلسفَتَه البلاغية التي جعل محورَها نظريتَه في النظم التي ربط فيها بين اللفظ والمعنى وبين دلالة الألفاظ الأسلوبية ودلالاتها الثانوية، وجعل النظمَ وحدَهُ هو مظهر البلاغة ومثار القيمةِ الجماليةِ في النصِ الأدبي"[14]

حازم القرطاجني: لم يهتمَّ بقضية (اللفظ والمعنى)، كاهتمام مَن سبقه من النقاد، ولم يتعصَّب لصالح طرف منهما؛ ذلك بأنَّه أكَّد في المقابل على أهمية (التناسب) بين أركان العمل الشعري (لفظًا ومعنًى...)، من أجل الغاية الرئيسة المرجوَّة من أي عمل شعري، ألا وهي "إحداث التأثير في المتلق، ولعل أبرز ما أتى به حازم في هذه القضية - وإن لم يكن أول مَن نحا هذا النحوَ فيها - تأكيدُه على فكرة التناسب المبدئي، بكون القصيدة تركيبًا متناسبًا من مستويات متنوّعة، ترتد إلى معانٍ وأساليب مصوغةٍ في ألفاظ تتلاحم في نظام جامع لشتات مركب من أغراض.[15]

"ومن الأسس التي تقوم عليها فكرة (التناسب) عند حازم القرطاجني: مسألة التركيب اللُّغوي للصورة المتخيَّلة، ولا يتحقَّق ذلك إلا من خلال التناسب المذكور بين اللفظ والمعنى، فإنَّ أفضل الشعرِ هو ما أوقع مبدعُه نسبًا فائقةً بين معانيه وصوره، ولا بدَّ من أن يُؤثِّر مثل ذلك في المتلقي أكثر من غيره، ويقول حازمٌ في ذلك : واعلم أنَّ النسبَ الفائقة إذا وقعتْ بَينَ هذه المعاني المتطالبة بأنفسِها على الصورةِ المختارةِ...، كان ذلك من أحسن ما يقع في الشعر"[16]

أما **ابنُ رشيق القيرواني** (ت463)، فيُعَدُّ كتابُه (العمدة في محاسن الشعر وآدابه) تلخيصًا شافيًا لأهم الآراء النقدية السابقة التي أثارت هذه القضية؛ حيث يقول: "ثُمَّ للناس فيما بعد آراء ومذاهب:

- منهم مَن يُؤثِر اللفظ على المعنى، فيجعله غايتَه ووكدَه...؛ كقول بشار:

إذا ما غَضِبْنَا غضبةً مُضريَّةً * هَتَكْنَا حجابَ الشمسِ أَوْ قَطَرَتْ دَما**

- ومنهم مَن ذهب إلى سهولة اللفظ فعُنِي بها، واغتُفر له فيها الركاكة واللين المفرط؛ كأبي العتاهية، وعباس بن الأحنف، ومَن تابعهما، وهم يرون الغايةَ قول أبي العتاهية:

يا إخوتِي إنَّ الهوى قاتِلي * فيسّروا الأكفانَ مِن عاجلِ**

- ومنهم مَن يؤثر المعنى على اللفظ، فيطلب صحته، ولا يبالي حيث وقع من هجنةِ اللفظ وقبحِهِ وخشونتِهِ؛ كابنِ الرومي، وأبِي الطيب .[21]"....وبخصوص موقفه هو - يعني ابن رشيق القيرواني - فقد ذهب إلى مذهب الوسط، فاللفظ عنده بدون معنى جسدٌ ميت، والمعنى بدون لفظ روحٌ بلا جسد، ولذلك قال:

"اللفظ جسم، وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباطِ الروحِ بالجسمِ، يضعف بضعفه، ويقوى بقوته، فإذا سلِم المعنى واختلَّ بعض اللفظ كان نقصًا للشعر وهجنة عليه، كما يعرضُ لبعض الأجسام من العرج والشلل والعور، وما أشبه ذلك، من غير أن تذهب الروح، وكذلك إن ضعف المعنى واختل بعضُه، كان للفظ من ذلك أوفر حظ، كالذي يعرض للأجسام من المرض بمرض الأرواح، ولا تجد معنًى يختلُّ إلا من جهة اللفظ، وجريه فيه على غير الواجب، قياسًا على ما قدمت من أدواء الجسوم والأرواح، فإن اختل المعنى كلُّه وفسد بقي اللفظُ مواتاً لا فائدة فيه، وإن كان حسن

---

[12]. قدامة بن جعفر، نقد الشعر. مطبعة الجوائب -قسطنطينية الطبعة: الأولى، 1302، ص55

[13]. المرزوقي، شرح المقدمة الأدبية على ديوان الحماسة لأبي تمام، تحقيق ياسر بن حامد المطيري، دار المنهاج، ص35

[14]. مصطفى عبد الرحيم إبراهيم، في النقد الأدبي القديم عند العرب. مكة للطباعة 1998. ص198

[15]. حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، ص45/44

[16]. المصدر السابق

الطلاوة في السمع، كما أن الميت لم ينقص مِن شخصه شيءٌ في رأي العين، إلا أنه لا يُنتفعُ به ولا يفيد فائدة، وكذلك إن اختلَّ اللفظ جملة وتلاشى لم يصحَّ له معنى؛ لأنا لا نجد روحًا في غير جسم ألبتة."[17]

والملاحظة التي يجب تسجيلُها في هذا المقام، هي أن أغلب النقاد كانوا إلى جهةِ اللفظ والانتصار له على حساب المعنى، بدليل قوله" :أكثر الناس على تفضيل اللفظ على المعنى، سمعتُ بعض الحذاق يقول: قال العلماء: اللفظ أغلى من المعنى ثمنًا، وأعظمُ قيمةً، وأعزُّ مطلبًا؛ فإن المعاني موجودة في طِبَاعِ الناسِ، يستوي الجاهلُ فيها والحاذقُ، ولكن العمل على جودة الألفاظ، وحسن السبك، وصحة التأليف..."[18]

الفصاحة وارتباطها باللفظ أو المعنى:

ومن المسائل التي شغلت البلاغيين ضمن قضية اللفظ والمعنى مسألة الفصاحة، وهل هي من عوارض الألفاظ، أم من عوارض المعاني، أم لمجموعهما. أما أنصار اللفظ فاعتبروها من صفات اللفظ وخصائصه، وهو ما يشير إليه كلام ابن سنان "أن الفصاحة على ما قدمنا نعت للألفاظ، إذا وجدت على شروط عدة، ومتى تكاملت تلك الشروط فلا مزيد على فصاحة تلك الألفاظ، وبحسب الموجود منها تأخذ القسط من الوصف، وبوجود أضدادها تستحق الاطراح والذم"[19]. وقد اشترط ابن سنان لفصاحة اللفظ شروطا ثمانية نجملها فيما يلي: أن تؤلف اللفظة من حروف متباعدة المخارج لتكون خفيفة على اللسان، وأن نجد لتأليف اللفظة في السمع حسنا ومزية، وأن تكون اللفظة غير متوعرة وحشية، وغير ساقطة عامية، وأن تكون جارية على الصرف العربي الصحيح في التصريف والاستعمال، وألا تكون الكلمة قد عبر عنها عن أمر آخر يكره ذكره، فإذا أوردت وهي غير مقصود بها ذلك المعنى قبحت، وأن تكون الكلمة معتدلة غير كثيرة الحروف، فإنها متى زادت على الأمثلة المعتادة المعروفة قبحت، وخرجت عن وجه من وجوه الفصاحة، وأن تكون الكلمة مصغرة في موضع عبر بها فيه عن شيء لطيف أو خفي أو قليل أو يجري مجرى ذلك.[20]

وقد أنكر عبد القاهر الجرجاني أن تكون الفصاحة من عوارض اللفظ المفرد، لإيمانه بأن فصاحة اللفظ عائدة للمعنى، وأن هذه الفصاحة لا تظهر إلا بضم الكلام بعضه إلى بعض في جملة من القول، أو في نص من النصوص، وما يدل على ذلك أننا نرى اللفظة فصيحة في موضع وغير فصيحة في مواضع كثيرة، ومن ثم فإن المزية التي من أجلها استحق "اللفظ الوصف بأنه فصيح، هي في المعنى دون اللفظ لأنه لو كانت بها المزية التي من أجلها يستحق الوصف بأنه فصيح تكون فيه دون معناه، لكان ينبغي إذا قلنا في اللفظة إنها فصيحة، أن تكون تلك الفصاحة واجبة لها في كل حال"[21]. يربط عبد القاهر مفهوم الفصاحة بالنظم والتأليف والترتيب، ولا شيء من الاعتبار للفظ وحده قبل أن يدخل في هذا النظم الذي ينتظم به المعنى، فالنظم "عمل يعمله مؤلف الكلام في معاني الكلم لا في ألفاظها، وهو بما يصنع في سبيل من يأخذ الأصباغ المختلفة، فيتوخى فيها ترتيبا يحدث عنه ضروب من النقش والوشي".[22]

والحقيقة أن الألفاظ المفردة لا يتصور أن يقع بينها تفاضل من حيث هي ألفاظ مفردة ومجردة دون أن تدخل في تركيب أو تأليف، ولكن ذلك لا ينفي أن للألفاظ المختارة فضل في معنى النظم وجمال التأليف. فالرأي المنصف أن النظم أو التركيب، يحسن بالألفاظ العذبة السلسة، ويقبح بالألفاظ القبيحة الخشنة، ثم إن الألفاظ الحسنة تزداد جمالا وحسنا بحسن موافقتها لما جاورها من الألفاظ، فيكشف التجاور عما فيها من حسن وجمال. ولعل في هذا القدر من الشرح والتوضيح كفاية لإبراز جهود البلاغيين في معالجة قضية اللفظ والمعنى، لننتقل إلى جهود اللغويين.

الأثر المذهبي في تصور العلاقة بين اللفظ والمعنى:

من الأمور الثابتة التي لا مراء فيها أن القرآن الكريم أصل لجميع العلوم العربية الإسلامية، انطلقت منه للكشف عن وجوه إعجازه الذي كان الدافع إليه في بعض الحالات، رد مزاعم الطاعنين، وجلاء الحقيقة أمام المشككين الذين خفيت عنهم أسرار بيانه ولطائف نظمه. وأهم ملاحظة تستوقفنا عند هذه الدراسات التي قدمها علماؤنا عن قضية اللفظ والمعنى، نظرية الفصل التي سيطرت عليهم في تصورهم لها، حيث أخذ البحث عندهم اتجاهين متوازيين، أحدهما اهتم باللفظ والصياغة، والآخر وجه عنايته للمعاني وأحوال التراكيب. فإذا تتبعنا آراء العلماء على اختلاف بيئاتهم العلمية نجد فكرة الفصل سائدة ومسيطرة في تصورهم منذ البداية، وفي مقدمة هؤلاء الجاحظ باعتباره أول بلاغي وناقد أثار جدلية اللفظ والمعنى بقولته المشهورة "المعاني مطروحة في الطريق"[23]، وقد زكى عبد القاهر الجرجاني هذه النظرية بقوله "وكيف يتصور أن يصعب مرام اللفظ بسبب المعنى، وأنت إن أردت الحق لا تطلب اللفظ بحال، وإنما تطلب المعنى، وإذا ظفرت بالمعنى، فاللفظ معك وإزاء ناظرك".[24]

وإذا انتقلنا إلى بيئة اللغويين والأصوليين، فإن هذا الفصل يظل مسيطرا وسائدا كذلك يقول ابن جني "إن العرب كما تعنى بألفاظها فتصلحها وتهذبها وتراعيها...فإن المعاني أقوى عندها وأكرم عليها وأفخم قدرا في نفوسها"[25]، أما الغزالي من الأصوليين فيقول "فاعلم أن كل من طلب المعاني من الألفاظ ضاع وهلك...ومن قرر المعاني أولا في عقله ثم أتبع المعاني الألفاظ فقد اهتدى.[26]

وفي الحقيقة إن هذا التفضيل للمعنى على اللفظ، أو اللفظ على المعنى، ليس سوى انعكاس لخلاف جوهري مذهبي، فمعظم هؤلاء العلماء على اختلاف بيئاتهم العلمية، كانوا يتوزعون بين أشهر مذهبين كلاميين عرفهما التاريخ الإسلامي، وهما المذهب المعتزلي والمذهب الأشعري، فكان كل عالم من هؤلاء العلماء وهو يحدد موقفه من قضية اللفظ والمعنى، ينطلق من أصول مذهبه الكلامي ويحاول أن ينتصر لآراء هذا المذهب، وينقض آراء خصومه ومخالفيه. ومن ثم فإن هذا التفضيل للمعنى أو للفظ، ليس في الحقيقة سوى انتصار للمذهب وأفكاره، وذلك ما سنخصه بالبحث في دراسة مستقلة لاحقا.

([17]) ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ج1، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل الطبعة: الخامسة،1981، ص 124 وما بعدها.

([18]) المصدر السابق.

.(19) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى. 1402هـ/1982م. ص: 63

(20) المصدر السابق.

.(21) دلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجاني تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة. الطبعة الثانية. 1410هـ/1989م. ص: 400

(22) المصدر نفسه.

([23]) دراسة الطبري للمعنى من خلال تفسيره جامع البيان عن تأويل آي القرآن: محمد المالكي، منشورات وزارة الأوقاف مطبعة فضالة المغرب. 1917هـ/1996م. ص: 42.

(24) دلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجاني تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة. الطبعة الثانية. 1410هـ/1989م. ص: 62.

.(25) الخصائص ابن جني (أبو الفتح عثمان، ت.392هـ) تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي بيروت لبنان. 215/1

.المستصفى في علم الأصول: الغزالي، تحقيق عبد السلام الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى. 1413هـ/1993م. ص: 81 (26)

وحيث إن قضية الإعجاز عاشت حياتها الأولى في أكناف المتكلمين إذ كانوا يمثلون جبهة الدفاع عن الإسلام بما يثار حوله من شكوك، فإن ثنائية اللفظ والمعنى قد ارتبطت بهذه القضية عند علماء الكلام وأصبحت لصيقة بها، وأصبحت محط اهتمام مختلف العلماء، بل يمكن القول إن قضية اللفظ والمعنى لم تكن لتكتسب أهميتها عند البلاغيين واللغويين، لولا اتصالها بقضية الإعجاز القرآني، التي كانت الشغل الشاغل لجميع البيئات العلمية، فقد ربط هؤلاء العلماء ما بين قضية الإعجاز وثنائية اللفظ والمعنى لكشف أسرار القرآن الكريم وإبراز سر الإعجاز اللغوي فيه، فاهتم الفريق الأول باللفظ والصياغة لإثبات إعجاز القرآن، واهتم الفريق الثاني بالمعاني وأحوال الإسناد لإثبات الإعجاز.

خاتمة:

إن الهدف مِن دراسة قضية نقديَّةٍ بحجم قضية اللفظ والمعنى، ليس هو فقط جردًا لأقوال العلماء والنقاد، بقدر ما هو اطِّلاع على الفكر العربي القديم في عمومه؛ من أجل إذكاء الوعي الثقافي النقدي لدي دارسي النقد والأدب عمومًا، ولعل أهمية هذه القضية النقدية وفائدتها تتجلَّى في هذا الدور بالذات...

ومهما يكن من أمر هذا الفصل الذي اتسمت به رؤية العلماء العرب القدامى لعلاقة اللفظ بمعناه، فإن القارئ المنصف للتراث العربي الإسلامي، لا يسعه إلا أن ينظر بإجلال إلى ما تركه هؤلاء العلماء، من دراسات لغوية تتصل بهذه الثنائية، فقد نظروا إلى الألفاظ والمعاني وطبيعة العلاقة القائمة بينهما من زوايا مختلفة، وأبعاد متنوعة، مما يدل على أن هؤلاء العلماء الأفذاذ، كانوا يمتلكون وعيا نظريا كاملا عنهما، وكان من نتائج هذا الوعي أن تركوا لنا "مفاهيم ومصطلحات لغوية ونقدية، يقف الإنسان أمامها بكثير من الإعجاب والعجب. فالإعجاب لأن البلاغي العربي ابتداء من الجاحظ في القرن الثالث الهجري، بل ابتداء بسيبويه في القرن الثاني، وانتهاء بالسكاكي في مطلع القرن السابع، لم يغفل جانبا واحدا من جوانب علم اللغة الحديث كما قدمه (سوسير) في بداية القرن العشرين.

المصادر والمراجع

1. تاريخ النقد الأدبي عند العرب"، إحسان عباس، دار الثقافة: بيروت، ط(4)، 1983.
2. التعريفات، الشريف الجرجاني الجرجاني (الشريف علي بن محمد، ت.816هـ) تحقيق جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى. 1403هـ/1983م.
3. الخصائص ابن جني (أبو الفتح عثمان، ت.392هـ) تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي بيروت لبنان.
4. دراسة الطبري للمعنى من خلال تفسيره جامع البيان عن تأويل آي القرآن: محمد المالكي، منشورات وزارة الأوقاف مطبعة فضالة المغرب. 1917هـ/1996م.
5. دلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجاني تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة. الطبعة الثانية. 1410هـ/1989م.
6. رسائل الجاحظ، الجاحظ، نقلًا عن الأخضر جمعي، (اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب).
7. شرح المقدمة الأدبية على ديوان الحماسة لأبي تمام، المرزوقي، تحقيق ياسر بن حامد المطيري، دار المنهاج.
8. الشعر والشعراء، ابن قتيبة الدينوري، ج1، دار الحديث، القاهرة 1423.
9. طبقات فحول الشعراء: لابن سلام الجمحي (ت231هـ)، تحقيق محمود محمد شاكر، ط. دار المعارف، د.ت.
10. العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل الطبعة: الخامسة،1981.
11. في النقد الأدبي القديم عند العرب، مصطفى عبد الرحيم إبراهيم، مكة للطباعة 1998.
12. في نظرية الأدب، شكري عزيز الماضي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع، 2003.
13. الكليات، الكفوي أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني، ت.1094هـ، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الأولى. 1412هـ/1992م.
14. اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب، الأخضر جمعي، منشورات كتاب اتحاد الكتاب العرب، دمشق -2001.
15. لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت الطبعة: الثالثة، 1414 هـ
16. مصطلحات النقد العربي لدى الشعراء الجاهليين والإسلاميين، الشاهد البوشيخي، عالم الكتب الحديث، 2009، المقدمة.
17. مقاييس اللغة، ابن فارس، ج5، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر 1979.
18. المعجم المفضل في علم العروض والقافية وفنون الشعر، إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان.
19. منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة.
20. الموازنة بين أبي تمام والبحتري، الآمدي.
21. نقد الشعر، قدامة بن جعفر، مطبعة الجوائب -قسطنطينية الطبعة الأولى، 1302.
22. النقد التطبيقي عند المرزوقي، شاعر الحماسة، عبد الهادي خضير– دار الصفاء – ط01 – 2001م/1432هـ.
23. الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي الجرجاني، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط3.